فكاهات

رواية

مادلين (١)

كان في احدى قرى فرنسا فتاةٌ تدعى مادلين من أُسرة متوسطة الحال ولم يُرزَق ابواها سواها فاهتما بتعليمها وتهذيبها وكانا يحبانها محبة شديدة ويحرصان جهدهما على راحتها وسرورها فلا يرفضان لها ملتمساً او يعارضانها في امر . فشبت على مهد الدلال والرفاهية دون ان يطرق اذنها يوماً كلمة توبيخ او وعيد بل كانت حيثما سارت لا تسمع الا الاطراء والمديح ولا سيما وان الطبيعة زينتها بابهى حلل الجمال وجعلت في عينيها نظراتٍ هي السحر الحلال فما رآها احدٌ الا أُخذ بشَرَك محاسنها وتقيد بسلاسل هواها . ولم تبلغ سن العشرين حتى اصبحت فتنةً للناظرين فاحاط بها شبان القرية احاطة الهالة بالقمر وكلهم يبتغي رضاها ويرتجي ودّها . اما هي فكانت طاهرة القلب ابية النفس أميل الى الجفوة من اللين فلم تبالِ باحدٍ منهم ولا تعدّت تودُّداتهم اذنيها اذ كانت تعتقد برفعة قدرها وسموّ مكانتها بين هؤلاء الذين كانوا يجلونها اجلال المعبود ويستسلمون لاحكامها كالارقاء . ولم تكن مع ذلك لتزجرهم او تقصيهم عنها بل كانت تتلذذ باستماع توسلاتهم وزفرات

(١) مترجمة عن الفرنسوية بقلم السيدة لبيبة هاشم

صدورهم وتبتهج لمرأى دموعهم تنسكب على قدميها كملكة عاتية مستبدة تسرّ باتلاف نفوس اسراها والتنكيل برعيتها

وحدث يوماً أن اتى تلك القرية واحدٌ من قواد الفرنسيس يقال لهُ الكنت دي كولان قصد السياحة فرأى مادلين مع اترابٍ لها في بعض المتنزّهات وهي تزهو بينهنّ كالقمر ومن حولهِ النجوم فراقهُ جمالها وشعر بجاذب يدفعهُ الى محادثتها فاقترب الى الفتيات مستأذناً في السؤال عن وجهة تلك الطريق فأجبنهُ بالفاظٍ تمازجها الرقة والسذاجة وزدنَ على ذلك ان سمحنَ لهُ بمرافقتهنّ اذ كنّ سيمررنَ بالجهة التي يقصدها ولم يكن اشهى لديهِ من هذه المنحة فسار قريباً من مادلين وهو يردد عبارات الشكر بالفاظٍ صاغتها الرقة الباريزية وزانها الاحترام

فشعرت مادلين بانعطافٍ نحو الشابّ الغريب ولا سيما بعد ان عرّفها باسمهِ ولقبهِ فكان للفظة كنت هزّةٌ في فؤادها وتأثيرٌ في نفسها لم تقوَ كبرياؤها على مقاومتهما فرفعت رأسها الجميل وقد تدلت منهُ غدائر شعرها كاغصان الصفصاف اذ يلاقيها النسيم وارسلت اليهِ من سهام عينيها نظرةً اخترقت فؤادهُ وذهبت بلبهِ . ثم قالت والدلال يرنح معطفيها هلا اقمت طويلاً في قريتنا يا سيدي . فاجابها وآيات السرور باديةٌ على محياهُ اني اعدّ نفسي سعيداً يا سيدتي اذا ساعدتني الاحوال على اطالة المكث في هذا الفردوس البهيج كما اني اشكر حسن الطالع الذي ساقني اليهِ فمتعني بسعادة هذه الدقائق القليلة التي لن انساها ما حييت . فشكرتهُ ثم دعتهُ لزيارتها اذ كانت قد انتهت حينئذٍ الى منزلها فوعدها بذلك في نهزةٍ اخرى وودعها

وانصرف شاكراً

وباتت مادلين تلك الليلة والآمال تناجيها فتمثل لها انها ستصبح الكنتة دي كولان وتعيش في باريز عيشة السرف والفخفخة كباقي السيدات المثريات فتركب العربات الفاخرة وتتباهى بلبس الحلى والحلل بما يُظهِر جمالها ويجعلها قبلة الشبان وموضوع التفاتهم

ولقد اصابت فيما توهمت اذ لم يمضِ العام الا وكانت قرينة الكنت لكنها ما عتمت ان فُجِعت بفقدهِ واصبحت ارملة وهي لم تتجاوز الثانية والعشرين فالتزمت جانب الوحدة مدة عام قياماً بفروض الحداد ثم عادت الى ما كانت عليهِ من سابق معيشتها وماضي انسها فتألب من حولها الشبان وتكاثرت لديها الدعوات والحفلات فكانت تؤانس الجميع على السواء غير انها خصَّت بالميل فتىً يدعى الجنرال توماسي وتمكنت بينهما علائق الوداد فتعاهدا على الحب وعينا زفافهما بعد مضيّ شهرين من الزمن

* * *

وفي احد الايام دعت الكنتة خطيبها وواحداً من اصدقآئها يقال لهُ هنري وطبيبها الخاص لتناول العشآء في منزلها وكانت الكنتة في تلك الليلة طلقة المحيَّا باسمة الثغر وقد ارتدت ثوباً من الحرير اشبه بلون السمآء وابرزت منهُ كتفيها العاريتين تزينهما اطراف شعرها الفاحم وهو معقوص على رأسها بهيئة بديعة الصنع يتخلل ثنياتهِ ازهارٌ من الذهب الخالص مرصعة بالحجارة الكريمة تتلألأُ تحت انعكاس الانوار كقطرات الندى فوق بساط الربيع فاضيف الى جمالها بهآء يخجل البدر ويزري بازهار الرياض

وبينما كان الثلاثة حول المائدة وهم يتحادثون وجّه المسيو هنريه خطابهُ الى الكنتة فقال ان هذه آخر ليلةٍ يمثل فيها البطل فرنندو الطلياني ألعابهُ البديعة مع الاسود واني اعجب لعدم ذهابكِ اليها مع علمي برغبتكِ الشديدة في مشاهدة هذه الالعاب

فقالت اني لآسف جدًّا لكوني لم افكر في ذلك حتى الآن والاّ لما تأخرت عن المصير الى هناك لاني ارتاح جدًّا الى مشاهدة هذه الالعاب الحماسية ويسرني بالاكثر ان ارى انياب تلك الحيوانات الضارية تمزق جسد الممثل يوماً فانهُ مشهدٌ طبيعيٌّ لذيذ

فانقبض وجه خطيبها عند سماع هذه الكلمات ونظر اليها شزراً وهو يقول وهل تُسرّين يا سيدتي بعذاب البشر الى حدّ أن تتمني للممثل المسكين مثل هذه الميتة الشنيعة

فاجابتهُ باسمةً نحن نسآء القرى قاسيات القلوب لا نتأثر للمشاهد المحزنة غير اني لا اتمنى لهُ الضرر بل انما قصدت بقولي اني اودّ ان لا يفوتني مرأى مثل هذا الحادث اذا قُدّر فتمثل يوماً

فقال الطبيب مغيراً مجرى الحديث بالحقيقة ان المسيو فرنندو ممثل بارع وقد نال من الشهرة في باريز ما لم ينلهُ مصارع من قبلهِ

فقالتْ الكنتة وقد علمت انهُ يجيد كثيراً في ألعابهِ حين يراني حاضرةً فيُظهِر من اساليب الخفة والرشاقة والبسالة ما لا يفعلهُ في وقتٍ آخر

فاجابها الطبيب لقد اصبتِ واني قد راقبت ذلك مراراً فثبتت لديَّ حقيقتهُ

فانطاق من صدر خطيبها تنهدٌ طويل وتململ في مكانهِ كمن لسعتهُ افعى ثم قال دون ان يصوّب اليها بصرهُ اذاً فهو مغرمٌ بكِ

قالت انهُ لم يقل لي ذلك

وحينئذٍ قطع الطبيب حديث الكنتة وقال وهو ينظر في ساعتهِ لقد بلغنا الساعة التاسعة والتمثيل يبتدئ بعد نصف ساعة فهلموا بنا اذا شآءت حضرة الكنتة

فقالت الكنتة انني مستعدَّة لذلك فهل تكون انت مرافقاً لنا

قال اذا سمحتِ لي بذلك فاني اكون من الشاكرين

وكان خطيبها جالساً كالتمثال فالتفتت اليهِ وقالت وانت ايها العزيز ألا تصحبني ايضاً

فاجابها بفتور وقال لا

فنظرت اليهِ بدلالها المعهود وقالت وهي تكاد تسيل رقةً وحلاوةً اني استحلفك ايها الحبيب بالايام الباقية لاقترانا ان لا ترفض طلبي فاني اريد ان ترافقني ونتقاسم لذة هذه الليلة ثم ناولتهُ يدها فتأبط ذراعها وسار الى جانبها خاضعاً

***

ولم يمضِ نصف ساعة حتى كانت الكنتة واصحابها الثلاثة في ردهة التمثيل وقد حدَّقت اليها الانظار وتطالَّت نحوها الاعناق وقل من تنبه لرفع الستار حينئذٍ وظهور الاسود وهي تمشي متبخترةً في ساحةٍ مستديرة وسط الملعب يفصل بينها وبين الجلوس حاجزٌ خشبيٌّ متين . ثم اقبل المصارعون

وكلهم بألبسةٍ فاخرة مزينة بالشريط ما بين احمر واخضر وفي يد كلٍّ منهم حرابٌ ملبسة بالانسجة الملونة للتحرش بالوحوش فجعلوا يدورون من حولها وكلما لاحت لهم فرصةٌ وخزوها بالحراب حتى اذا ثار غيظها توارى المبارزون وراء الحاجز

وبعد حين ظهر البطل فرنندو فصفق الجمهور لهُ ابتهاجاً وترحيباً وكان فرنندو شاباً جميل الطلعة حسن البنية عليهِ سمات الشجاعة والبسالة يزيدهُ مهابةً ورُواءً ما عليهِ من اللباس الثمين المزركش الذي كان يتلألأُ نوراً كلما تمايل في جوانب الملعب . وكان من تأمل فيهِ يرى في عينيهِ ابتسامةً لطيفة تشف عن رقة عواطفهِ ولين عريكتهِ واستسلامهِ لاحكام الجمال وسلطان ربات الحجال فاخذ يجيل بصرهُ بين الجموع كانهُ ينشد ضالةً لهُ ثم ما لبث ان لمعت عيناهُ وبرقت اسارير وجههِ اذ لمح الكنتة تجاه الملعب وهي جالسة تحدّق اليهِ . فحمل من ساعتهِ على احد الثيران حملةً صرعهُ فيها ثم اردفهُ بالآخر فدهش الحضور لشجاعتهِ وعلت من بينهم اصوات الاستحسان والتصفيق حتى اهتزت لها اركان الردهة وابتسمت الكنتة في سرها اذ علمت بكونها هي مصدر تلك العجائب كما انهُ لم يفتها ما اصاب الجنرال خطيبها من الانفعال اذ كانت حرارة انفاسهِ المتصاعدة تمر على وجهها وصوت تنهداتهِ يبلغ اذنيها وهي اشبه بفحيح الافاعي التي كانت تنفث في فؤادهِ سمّ الغيرة . فلكي تطرد عنهُ الاوهام وتنفي منهُ الوساوس مالت نحوهُ بحركةٍ تشف عن فرط هيامها بهِ واخذت يدهُ بين كفيها وضغطت عليها بوجدٍ كانها تقول لهُ اطمئنّ بالاً فاني لا اروم سواك خليلاً

ولا ارضى عنك بديلاً

. . . . . .

وهنا ارتفعت اصوات الجمع المحتشد وعلا بينهم الضوضآء وهبّ كلٌّ من مكانهِ يطلب الباب واعول الصغار وأُغمي على اكثر السيدات وساد الخوف والجزع على قلوب الجميع . وقبل ان تنتبه الكنتة الى ما يجري انتصب الجنرال واقفاً ونزع يدهُ من يدها بحدّة وقبض على ذراعيها وادارها نحو القوم قائلاً انظري انظري ايتها السيدة فهوذا المنظر الذي تودّين رؤيتهُ . فالتفتت الكنتة واذا بفرنندو مطروحٌ على الارض وقد صبغت الدمآء ثيابهُ وفوقهُ اسدٌ ينهش صدرهُ وهو يحاول ان يدفعهُ عنهُ بما بقي فيهِ من القوّة ولكن ما لبث ان هجمت عليهِ بقية الوحوش هجمةً واحدة واحاطت بهِ من كل جانب قصد ان تشارك رفيقها في لذة الانتصار والانتقام فحُجب المسكين عن العيون ولم يكن يُرى سوى قطرات دمآئهِ تسيل بين ارجل تلك الحيوانات الناقمة عليهِ

وسبب تلك الحادثة ان فرنندو كانت قد اسكرتهُ لذة الظفر اولاً فاعاد الكرة على الاسود كالاول واخذ حربةً ووخز بها احد الاسود وكان اشدّها بأساً فدار الاسد دورتين وهو يزمجر بحنق فاعاد فرنندو الوخزة لكي يثير غضبهُ ويحملهُ على مبارزتهِ فلمعت عينا الاسد وارسل صوتاً مخيفاً ازعج الحضور ولكنهُ لم يتحرك من مكانهِ . فدار الممثل حولهُ ولطمهُ ثالثاً ورابعاً بقسوةٍ اثارت صواعق غيظهِ فجعل يزمجر كالرعود القاصفة وهجم عليهِ وهو يصيح ويزأر بما استكّت لهُ الآذان فابتعد عنهُ فرنندو مسافةً

ليتهيأ للنزال وكانهُ رام في تلك اللحظة وهو في اشد المواقف خطراً ان يسترق من الكنتة نظرةً يستمدّ بها قوّةً جديدة للكفاح فاتفق انها كانت حينئذٍ قابضة على يد خطيبها تنظر اليهِ بذلك الشغف والانعطاف واذ رأى منها ذلك ولم يكن لهُ سابق معرفةٍ بها ولا يعلم شيئاً من امرها وعلاقاتها مع الآخرين وربما كان يظنها خاليةً فسآءَ فألهُ وشعر بان يد الغيرة صدمتهُ صدمةَ اصابت منهُ فؤاداً كان قد وقفهُ لعبادة تلك الفتانة فغاب رشدهُ وارتخت اوصالهُ فكانت تلك افضل فرصةٍ لغريمهِ الاسد الناقم فانشب فيهِ مخالبهُ دون شفقة ولا رحمة

واذ عاينت الكنتة ذلك صاحت بخطيبها متوسلةً اليهِ ان يسرع لنجدتهِ فتركها وسار دون ان ينبس ببنت شفة وخرجت هي مستندةً على ذراع طبيبها وقد اخذ منها الارتعاش كل مأخذ فاوصلها الطبيب الى العربة حيث جلست تنتظر رجوع الجنرال بالخبر اليقين . ولم يكن الا القليل حتى عاد وعلائم اليأس والاسف باديةٌ على وجههِ المكفهرّ فصاحت الكنتة اذ رأتهُ على تلك الحال اذن قد قُتل وقُضي الامر . فلم يجبها بكلمة بل تقدم بسكون وصافح يدها مودعاً فدعتهُ الى مرافقتها فلم يعرها اذناً صاغية بل اقفل باب العربة واشار الى السائق بالمسير ثم ابتعد دون ان يلتفت الى توسلاتها . وسقطت الكنتة بعد ذلك مغشياً عليها لما نالها من الانفعال في تلك الليلة فاوصلها الطبيب الى منزلها واعتنى بها الى ان سكن جأشها ثم انصرف بعد ان اشار عليها بلزوم الراحة والسكينة

واستيقظت الكنتة في اليوم الثاني عند الساعة العاشرة فاخذت تجيل

في ذاكرتها حوادث الليل الغابر ومقتل فرنندو ونفور حبيبها منها وتركهُ اياها على تلك الحال فاثر فيها ذلك تأثيراً شديداً لكنها علمت النفس بزيارتهِ قريباً ثم نهضت متثاقلةً وقرعت الجرس فحضرت الخادمة فسألتها الكنتة ألم يحضر الجنرال توماسي هذا الصباح

قالت لا يا سيدتي ولم يأتِ سوى المسيو هنري وهو ينتظر ان تستيقظي ليستفهم عن صحتك

قالت فلينتظرني في غرفة الاستقبال وساوافيهِ في الحال

قالت الا تريد سيدتي ان تطالع ما جآءها بهِ البريد اليوم

قالت لا بأس من مطالعة الرسائل واما الجرائد فابقيها الى وقتٍ آخر . فاعطتها ما طلبت ثم تركتها وخرجت

وكانت اول رسالة وقع نظر الكنتة عليها معنونة بخط خطيبها فقضتها للحال وقرأت فاذا فيها ما يأتي

« الى حضرة الكنتة دي كولان

« في ساعة اطلاعكِ على اسطري هذه اكون قد ابتعدت عن باريز بحيث لا يرى احدنا الآخر فيما بعد فانا وانتِ نعلم ان قاتل فرنندو لم يكن قط الاسد وان دمهُ سيبقى كحاجز حصين بيننا يحول دون اقترابنا فاستودعكِ الله وداعاً لا لقآء بعدهُ »

اندري توماسي